صورة المسبِّل في رواية صيف إفريقي لمحمد ديب بين التأريخ والتخييل

The character of the militant in the novel African Summer of Mohamed Dib, between dating and imagination

د. سامية يحياوي[1]
Dr. Yahiaoui Samira
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة الجزائر
samiayahiaoui1@hotmail.fr

تاريخ الاستلام:2020/06/15– تاريخ القبول:2020/08/17– تاريخ النشر: 2020/09/19

ملخص:

تنقل رواية صيف إفريقي(Un été African) لمحمد ديب تفاصيل الحياة اليومية للشعب الجزائري أثناء الثورة التحريرية الكبرى، وتعايشه الصعب مع الوجود الاستعماري. وقد ركّز الروائي على فئة حسّاسة وقت الثورة وهي فئة المسبّلين حيث نجد الغرض من الرواية هو شكر وتشجيع وإقرار بمجهود هؤلاء، وتعبهم في صمت. ركز محمد ديب على إبراز دور المسبلين في الثورة التحريرية وتدعيمها على اختلاف المستويات والمناصب التي شغلوها. حيث لم تكن لتنجح الثورة لولا هذا الشريان الرئيسي الذي امتد وتفرع بتنظيم ذكي، وتنسيق جيّد محكم بالتنسيق مع الثوار والشعب. وذلك لما تمتعوا به من حرية لحد ما، فمثّل المسبّل دور المموّه للمستعمر، والشريان الذي يزوّد الثوار المؤونة والمعلومات بكلّ حرص وحذر. من أجل تحقيق غاية واحدة هي النصر والاستقلال.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار،المسبّل، الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، الصورة.

The character of the militant in the novel African Summer of Mohamed Dib, between dating and imagination

Abstract:

Mohamed Dib is one of the authors of the Algerian literature written in french and he considered this literature and circumstantial period in the history of Algeria considering that French language as the exile of war booty and this creativity was distinguished by a critical trend, and the novel of The African Summer" Malek Hadad which was issued in 1959 was one of the novels filming the facts of the armed revolution
This novel reflect's the daily life and coexhistence of the Algerians during the liberating revolution. Mohamed Dib concontrated on a very sensitive group called « the militants. » The major aim of this novel is to thank , praise and encourage and recognize the silent efforts and tiredness of those Militants Who used to occupy an important posts and levels, They were like an artery that supplies victual for revolutionaries. For only one reason; which is the victory and independence of the Algerians.

Keywords: colonialism , the militants , the Algerian literature writen in french.Character.

[1] المؤلف المرسل: د. سامية يحياوي، الإيميل: samiayahiaoui1@hotmail.fr

مقدمة:

أسعى من خلال هذه الدراسة إلى تتبع صورة المسبل في رواية (صيف إفريقي) للمبدع محمد ديب التي نشرت عام 1959. محاولة الإحاطة بإشكالية الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، وأن أتتبع مسار الكتابة الإبداعية عند محمد ديب بالتركيز على نموذج صيف إفريقي والتي تنتمي إلى المرحلة الأولى من تجربة الكاتب الإبداعية أي (الواقعية الثورية)، وسأعمد إلى استنطاق ذاكرة النص وخلفياته التاريخية والاجتماعية والجمالية من خلال نموذج المسبّل، هذه الشخصية التي كانت شريان الثورة ولم تحظ بالتشخيص في الابداعات الأدبية المختلفة، ولم تتناولها الدراسات النقدية من قبل.

فكيف صوّر سرد محمد ديب شخصية المسبّل إبان الثورة التحريرية، ولماذا صورها بهذه الطريقة؟ وإلى أي مدى نجح في التوفيق بين الرواية والمرجع والمزج بين التاريخي والجمالي؟

وللإحاطة بهذه الاشكاليات اعتمدت المنهج التاريخي لأنه منهج يهتم بدراسة الظروف السياسية والاجتماعية والتاريخية التي ينتمي إليها الأدب، كما يرمي إلى تفسير الظواهر الأدبية والمؤلفات وشخضيات الكتاب، ومدى تأثر العمل الأدبي وصاحبه بالوسط ومدى تأثيره فيه، فمعرفة التاريخ السياسي والاجتماعي لازمة لفهم الأدب وتفسيره. وقد كانت أحداث الرواية متزامنة مع الثورة التحريرية الكبرى، فأرّخت لتفاصيلها عبر جماليات السرد وبلغة المستعمر.

عانت الجزائر من الاستعمار الفرنسي منذ عام 1830. وقد نجح في التأثير عليها بطمس معالم الهوية الوطنية خاصة اللّغة العربية، وقد تمخض عن هذا التلاقح اللاّشرعي بين الثقافتين الفرنسية والعربية أدبا جزائريا مكتوبا باللغة الفرنسية، أثار جدلا كبيرا حول نسبته وهويته وانتمائه. فهل هو مولود شرعي من أمّ فرنسية؟ أم هو أدب هجين فقد شرعيته بسقوط شرط اللغة خاصة وأنّ الأدب القومي يمثّل هوية أدبية؟. تعامل النقاد الجزائريون مع هذا الأدب على أنه فرنسي اللغة جزائريّ الروح، و أنه أدب جزائري بتعبير فرنسي كما سمّاه مالك حدّاد، أو غنيمة حرب كما وسمته آسيا جبار.

1-إشكالية الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية:

عرفت الجزائر فترة الاستعمار الفرنسي ظاهرة لغوية جديدة وهي الكتابة باللغة الفرنسية، لغة المستعمر، فكان الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، أو الأدب الفرنسي ذو التعبير الجزائري؛ هو مجموع النصوص التي ألفها مبدعون من أصول جزائرية، أو فرنسيون تناولوا القضية الجزائرية، وذلك في الفترة الممتدة من 1920-وما بعدها، ويتسم هذا الأدب بتمسكه بمعالم الهوية الجزائرية، والتأكيد على خطاب الانتماء والتمايز، وقد تأكد هذا التوجه لدى محمد ديب في ثلاثية الجزائر: (الدار الكبيرة) 1952و(الحريق) (1954)، و(النول) (1957)، وعند مولود معمري في (نوم العادل) (1955)، ومع كاتب ياسين في (نجمة)، وكلها تشترك في تعبيرها عن حالة الحرمان والفقر والتخلف الذي غرق فيه المجتمع الجزائري تلك الفترة، كما عالجت روايات أخرى وقائع الثورة المسلحة، ومن ذلك رواية (الانطباع الأخير)1958لمالك حداد ، ورواية (صيف إفريقي1959) –موضوع بحثنا- و ورواية (من ذا الذي يذكر البحر1962)لمحمد ديب، والتي صوّرت تفاصيل الحياة اليومية للشعب الجزائري وتعايشه مع المستعمر بذكاء وصبر، لإنجاح مخطط المقاومة السرّي بالتنسيق بين المجاهدين والمسبلين.

وقد برزت فيما يخص الأدب النسوي الجزائري المكتوب بالفرنسية، كتابات جميلة دباش وطاوس عمروش، فبفضل مكانتها الاجتماعية تمكنت جميلة من الولوج إلى الحقل الأدبي من خلال أعمالها القصصية: (ليلى الفتاة الجزائرية (1946) و(عزيزة (1955) وقد طرحت فيها الكاتبة جملة من المشكلات، أهمها مشكلة الهوية. أما طاوس فقد نشرت سنة (1947) رواية اللؤلؤة السوداء؛ وهي من نوع السيرة الذاتية.

وفي سنة (1957) اكتسحت آسيا جبار ساحة الكتابة بفضل روايتها الأولى (العطش) (la soif)، حيث عالجت فيها الكاتبة مشكلة الزواج المختلط، وظاهرة تحرير المرأة. ثم نشرت (القلقون)

وبعد الاستقلال ظلت الأعمال الروائية المكتوبة بالفرنسية تتخذ من الثورة المباركة إطارا عاما لأحداثها ووقائعها، مثل الأفيون و العصا لمولود معمري (1965). وبعد منتصف الستينيات، غلبت على الروايات النزعة الانتقادية، حيث راح الكتاب يشددون اللهجة ضد الأوضاع السياسية والاجتماعية، مثل (رقصة الملك)(لمحمد ديب (1968)، و(المؤذن) لمراد بوربون (1968)، وضربة شمس لرشيد بوجدرة1972.

واستمر هذا الاتجاه في الثمانينيات، وخصوصا بعد حوادث أكتوبر (1988)، وأبرز روايات هذه الفترة (شرف القبيلة (1989) لرشيد ميموني."ونلاحظ أن جلّ هذه الروايات قد جمع بين وصف للحياة اليومية البسيطة للمواطن أو الفلاح الجزائري، وكذا الوقوف عند نماذج لعزلة المثقفين وانغماسهم في مجتمع لا يمثلهم في شيء، وفق تسلسل تاريخي للأحداث، وهدفهم الرئيسي من هذه الكتابات التأكيد على الخصوصية الثقافية والحضارية للهوية الجزائرية. ليكون هذا الأدب جزائريّ بامتياز لأن مضمونه طعنٌ في فرنسا، وفضح لسياستها الاستعمارية الظالمة، ليكون أدبا ظرفيا انتقاليا مثّل دور الشاهد على مرحلة عابرة في تاريخ الجزائر. يقول مالك حدادنحن كتاب جزائريون منفيون في اللغة الفرنسية [1].

محمد ديب* هو روائي جزائري يكتب باللّغة الفرنسية، برز في الساحة الابداعية في الخمسينات. عاش في فرنسا بعد الاستقلال ثم أكمل حياته في فنلندة، وتنقسم تجربته الإبداعية إلى مرحلتين: مرحلة **الكتابة الثورية**، حيث كتب ثلاثية الجزائر وموضوعها الثورة الجزائرية فترة الاحتلال الفرنسي وتضم؛ دار سبيطار - La grande maison1952، والحريق- L'incendie 1954، والنول Le métier a tisser- 1957. ثم مرحلة **الكتابة الإنسانية** حيث تخصص في موضوعات إنسانية بعد الاستقلال . ومن ذلك ثلاثية الشمال سطوح أورسول وغفوة حواء وثلوج من رخام ، يقول:(الآن وقد أصبح وطني مستقلا ومعترفا به في المنظمات الدولية، فمن واجبي أن أرتفع بكتاباتي إلى المستوى العالمي، لأن ميدان الكفاح قد انتقل إلى الصراع الدولي وبقائي في الجزائر سيقضي علي ككاتب، وقد كانت روايتي)الإله عند البرابرة تمثل السلسلة الجديدة الخاصة بالموضوعات العالمية)[2]

2-ملخص الرواية:

صدرت رواية صيف إفريقي (Un été Africain) عام 1959، وهي الرواية الرابعة للكاتب. تدور أحداثها في ولاية تلمسان وضواحيها –مسقط رأس محمد ديب- وقد نجح الكاتب في نقل تفاصيل الحياة اليومية للشعب الجزائري، وتعايشه الصعب مع الوجود الاستعماري. مركزا على فئة حساسة وقت الثورة وهي **فئة المسبلين**، حيث نجد الغرض من الرواية هو شكر وتشجيع وإقرار بتعب هؤلاء في صمت.وقد ركز ديب على إبراز **دور المسبلين** في الثورة التحريرية وتدعيمها على اختلاف المستويات والمناصب التي شغلوها. حيث لم تكن لتنجح الثورة لولا هذا الشريان الرئيسي الذي امتد وتفرع بتنظيم ذكي وتنسيق جيّد ومحكم بالتنسيق مع الثوار والشعب. وذلك لما تمتعوا به من حرية لحد ما، فمثل المسبّل دور المموّه للمستعمر والمورد الذي يزوّد الثوار بالمؤونة والمعلومات بكلّ حرص وحذر. من أجل تحقيق غاية واحدة هي النصر والاستقلال.

3-رمزية العنوان:

يعتبر العنوان (ممثلا لسلطة النص وواجهته الإعلامية التي تمارس على المتلقي إكراها أدبيا، كما أنه الجزء الدال من النص الذي يؤشر على معنى ما فضلا عن كونه وسيلة للكشف عن طبيعة النص والمساهمة في فك غموضه...وهو النواة المتحركة التي خاط عليها المؤلف

نسيج النص)[3] يتكون العنوان صيف إفريقي من مركب دلالي اسمي تكون من مبتدأ وصفة ، يحمل العنوان دلالتين الأولى سلبية والثانية إيجابية؛ أما **القيمة السلبية** فتكمن في دلالة الصيف على الحرّ والقيظ والجفاف والنار والقسوة. وكلّها صفات توفرت فعلا في المناخ، وتضاعفت بجرائم الاستعمار الفرنسي، حيث فرض سياسة الأرض المحروقة على الأهالي، وتفنن في تعذيب الجزائريين بأقسى أنواع العذاب. أما **القيمة الإيجابية**، فتمثلت دلالتها في قوة الثورة التي تولدت من هذه النار، والحرارة التي أوقدت في قلوب جزائيين متعطشين للنصر والحرية، فكان الصيف فصل النضج والجني والحصاد.

ولا تكتمل دلالة العنوان بلفظة (صيف) وإنما لا بد من ربطه بجزئه الثاني (**إفريقي**) وهي كلمة نكرة في صيغة النسبة إلى مكان"افريقيا" فيتكثف بذلك الغموض والالتباس. وتتعقد الدلالة وتتعدد. وذلك أن المرجع الذي عليه ينعقد معنى اللفظ وتحيل العلامة، مرجع غائم، غامض، يتردد بين خارج النص وداخله بين سياق المقال ومقتضى المقام. فهل –إفريقيا– هي المكان المرجعي التاريخي أم هل هي مكان نصي تخييلي يبتنيه الخطاب وتؤسسه الكلمات؟ ذلك هو الالتباس الذي يشيعه العنوان ويحدثه، و"التلبيس" أو التلغييز استراتيجية نصية فاعلة في تشكيل بنيان النص وصياغة دلالاته، بل يمكن اعتباره مفتاح اللغز وكلمة السر في الرواية) [4] ؛ صاحبت كلمة إفريقي لفظة "صيف" من أجل تعميم الجزء "الجزائر" على الكلّ، حيث كانت معظم دول افريقيا في تلك الفترة مستعمرة من طرف الاستعمار الفرنسي وغيره. وقد عانت إفريقيا فترة الخمسينات من ألم الوطن المستلب، فكان المخاض الذي أنجب الاستقلال، فهذا الصيف لم تعشه الجزائر فحسب بل كان مشتركا بين الدول الشقيقة ودول الجوار. حيث استقلت أغلبها عام 1960 أي بعد عام واحد من صدور الرواية (مالي–موريتانيا– بوركينا فاسو– بلغاريا– جمهورية أفريقيا الوسطى–تشاد– ساحل العاج– الغابون– السنغال– الكونغو–الكاميرون–غينيا وغانا 1958–) .

4–صورة المسبل داخل الأسرة الجزائرية إبّان الثورة التحريرية:

تعتبر فترة الثورة التحريرية فترة حرجة وحساسة "وفي مثل هذه الفترات تتداخل لغة الألفاظ مع لغة الرموز، ويستنجد السلوك اليومي والسياسي بالمخزون التخيلي، كما يتلون التاريخ الوقائعي والقدسي بألوان اللغة السياسية، وتتلون هذه الأخيرة بلون اللغة الرمزية. إن السياسة التي تصبح أولية وسائدة كما يقول لوسيان سيفيز Lucien Sfez، هي سياسة الصورة الرمزية La politique de l image symbolique، نظرا لهذه التداخلات. لا يعود أمام الزمن التأريخي سوى إمكانية فتح الباب أمام الزمن الفكري كي يعيد قراءاته بشكل مغاير: قراءة الوقائعي بالتاخيلي، وقراءة السياسي بالقدسي "[5]

حرص "محمد ديب" في سرده لأحداث الرواية، على نقل نموذج مشرق عن الأسرة الجزائرية المتماسكة، والمتحابة، والمحافظة على عاداتها وتقاليدها رغم الضغوطات ومشاكل الحياة. باعتبار أنّ الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، وقد تماهى السارد في الرواية مع السارد التاريخي ليقدم لنا أحداثا ذات بعد تاريخي تحكي تجربة جماعية ممتدة على مستوى الزمان والمكان. فقد كانت عائلة "مختار راعي" الرجل المثقف العليم بحيثيات العمل الثوري، عائلة ثرية تكونت من الأم "يمنى طالب" التي تحترم زوجها وأسرتها كثيرا، ليكون ظهورها الأوّل في الرواية من خلف زوجها " إذ ظهرت وراء زوجها على عتبة إحدى الغرف". [6] ،وهو ما يعني زعامة الرجل و تبعية الزوجة وخضوعها له تلك الفترة. أما "زكية" فهي البنت الوحيدة للعائلة وقد تحصلت على شهادة الباكالوريا، وهي تطمح لنيل منصب معلّمة بعد أن وعدها أباها بمساعدتها. إلاّ أنّه غيّر رأيه بسب سوء أوضاع البلاد وتدهورها بسبب الاستعمار الفرنسي، وقد وافقته الجدة "نانا رضية" المتزمتة الصعبة التي كانت تحصر مهمة البنت في الزواج في سن مبكرة وتربية الأبناء فقط. تقول: **"أف !معلمة؟ ابحث لها عن زوج فذلك خير لها وهل تسمح لفتاة من آل راعي أن تعمل؟ إنّك لاشك تريد أن تسخر المدينة منك ومن ابنتك"**[7].

وهذا ما جعل "مختار راعي" يقرر تزويج "زكية" من ابن عمها "صبري" **إذ "يرى أبوها أنها إن تزوّجت من ابن عمّها، فستظل ابنتنا عندنا، ويظل هذا الفتى يحيا بيننا...ولن يكون زوجي مضطرا لإعطائه حصته من ارث ابنة حموي المتوفاة"** . [8]، وللعائلة علاقة

طيّبة مع الخال "علال طالب" صاحب مطاحن القهوة، كما كان في البيت خادمتان "رحمة"و"صفية" الطاهيتان. و"رقية" خادمة في بيت الجيران تأتي إلى البيت من أجل تبادل الحديث والثرثرة معهما.

كانت "بذرة" زوجة مرحوم امرأة طيّبة متضامنة مع زوجها المسبّل، لها أربعة أولاد التحق أكبرهم "بن علي" بالثوّار. فعندما جاء مجموعة من المجاهدين إلى القرية ذهب معهم وبقي الثلاثة في كنفها. والأصغر "سعيد" كان متعلقا جدّا بوالده. كما عرفت "بذرة" بحسن الأدب وحبها للضيوف ومن ذلك فرحها ببشرى "مرحوم" لها بقدوم أخته وشراء اللحم لاستقبالها أحسن استقبال.

ورمزت الأمّ في أسرة "با سهلي" إلى الصبر والقناعة بقضاء الله فرغم الفقر المدقع وفقدانها ولداها خلال أسبوع لم تخالف مشيئة زوجها عندما خرج مع ابنها الوحيد "عابد" ليلا في مهمة ثورية. وكذلك هو حال"جمال" مع زوجته "نفيسة" وابنيه وكذا علاقة "مصطفى والي" وابنته بأسرة أخيه "أحمد والي" الذي داوم على زيارته حتى بعد دخوله السجن.

انتقى "محمد ديب" شخصيات ذات دلالة مرجعية تجذبنا إلى عالم اليومي والمألوف والمعتاد، فقاعدة الاسم دالة على شخصيات تقاسمنا كل أنشطتنا اليومية وتشاركنا الانتماء إلى بيئة جزائرية أصيلة.

أراد "محمد ديب" من خلال هذه النماذج الروائية الايجابية التي تقاسمت نفس الظروف الاجتماعية الصعبة أن يؤكد تماسك المجتمع الجزائري وتكافله، داخل البيوت وخارجها؛ في الأسواق والمقاهي والمحلات خلال فترة الاستعمار. فقساوة الظروف لم تؤثر على أخلاق الأسرة الجزائرية المحافظة. مما جعل الجزائر قوة لا تقهر.

5- صورة المسبل ودوره في تدعيم الثورة ومدّ شرايين الاتصال:

تداخلت كلمات الراوي في بعض السياقات مع كلمات الشخصية ساعيا "إلى الغوص في أعماق اللحظة السردية ليكشف المستور ويعري ما يدور في الغرف الضيقة والأماكن العامة" [9]،بهدف توعية المواطن بتشريح واقعه المزري تحت قبضة المستعمر.فقد اشتغل المسبّل بسرية وصمت، فكان مدنيا مهمته نقل المساعدات المادية والمعنوية للمجاهدين، بسرية تامة وذكاء وحذر وإيمان كبير بالنصر والحرية، وقد حرص الروائي على تصوير شخصية المسبّل في أماكن مختلفة، ومهام متنوعة وكلهم تحدٍ وحرص على آداء واجبهم.

5-1-الانتشار الفرنسي والأمل الجزائري بالنصر

احتوى الجيش الفرنسي وسيطر على كلّ المناطق الجزائرية سواء في المدن أو في الأرياف، ممّا ضيّق الحركة على المواطن الجزائري، فكان دور المسبّل حسّاسا في فك العزلة على ثوار الجبل، لكن رغم هذه الهيمنة الفرنسية إلاّ أنّ أمل الجزائريين بالنصر كان كبيرا ومنهم "مرحوم" الذي يروي **"كانت شاحنات الجيش الفرنسي وسياراته التي تهبط نحو المدينة سرعة الإعصار، ترغم مرحوم وحماره على محاذاة الطريق بسرعة، وتصم أذنيه، وتلفه بالغبار، وكان بصره فارغا من كلّ معنى فهو لا يريد النظر إلى الجنود الذين تنقلهم السيارات " وكانت زفرة الانتقام تستيقظ في قلبه كلّما مرّت به وتمتم" عتاد أمريكي، خوذات أمريكية، بذات أميركية، أسلحة أميركية، ليس عند هؤلاء شيء سوى جلودهم !"**[10]

يحمل هذا المقطع أبعادا دلالية عميقة عن رغبة المستعمر في عزل الجزائري عن قضيته، وإبقائه في الهامش بذر الرماد في العيون، وصم الآذان حتى لا يبصر ولا يسمع ولا يفهم . لكن بالرغم من هذا الانتشار الفرنسي والسيطرة الكاملة إلاّ أن إيمان "مرحوم" كمواطن جزائري بسيط بثورته جعله لا يطيق النظر في وجه العدو، وبالرغم من ذلك استطاع أن يرى نقاط ضعف خصمه وهو في قوة جبروته، فرآه من صنع أمريكي لا يملكون شيئا سوى جلودهم، والباقي هو دعم أمريكا لفرنسا ضد الجزائر .**"وذكرته رؤية الجنود الفرنسيين بلغطة البارحة كانت الساعة تقارب العاشرة من المساء وكان قد أوى منذ هنيهة إلى فراشه وبذرة تقوم بآخر أعبائها، في هذا الوقت دوت انفجارات من مكان بعيد اهتزت لها الأرض فانطلقت الرشاشات تقرقع والأسلحة المتنوعة الأجناس ترد عليها ، ثم عاد الهدوء بالسرعة نفسها وتوقف إطلاق الرصاص في وقت واحد... وأدرك مرحوم فورا أنّ الوطنيين قد نسفوا الخط الحديدي"** [11]

، نجح الثوار في تفجير خطوط السكك الحديدية ، والقيام بعمليات متفرقة أربكت العدو حيث "سيطر القلق على الأوروبيين منذ أن وسّع الوطنيون نطاق عملهم في القطر كلّه بما فيها المدن"[12].

كثّف المستعمر من عمليات التفتيش عند مدخل المدينة لكلّ داخل وخارج حيث صنعوا حاجزا من الأخشاب والأسلاك الشائكة يحرسها ثلاثة من جنود الأمن الجمهوري المسلحين كما ضيقوا الممرات في وسط المدينة أيضا حيث **" كان عليه أن يسلك طرقا ملتوية لأنّ معظم الشوارع تسدها الأسلاك الشائكة"** [13]، إضافة إلى خضوع المواطنين إلى عمليات تفتيش متكررة .

وضعت فرنسا قوافل من الجنود تقوم بعمليات تفتيش فجائية ليلا للقرى والمداشر بحثا عن المجاهدين بطريقة همجية لا يسلم منها أحد، وكذا القيام باعتقالات واسعة للجزائريين ثم تعذيبهم في السجون يحكي "الطيب برغول" لصديقه "حمزة" الذي لم يتعرف عليه لتغيّر حاله" **لقد سجنوني عدّة أيام متتالية ومرّت عليّ أيام وأيام لا أستطيع لها عدّا، وأنا مع كلاب، كلاب شرسة...آه، لقد سجنوني مع كلاب"**[14]).

وتعرّض "مرزوق" إلى القتل عندما ارتبك وزوجته عندما سألوه عن ابنه فمات ميتة الأتقياء، اضطر شباب القرى للالتحاق بالجبل لدعم الجيش الجزائري، وليس خوفا من لكمات المستعمر الفرنسي وإنّما خوفا من الخضوع لظلمه. كما تعرض "مصطفى والي" العامل في دائرة الإحصاء إلى الاعتقال عندما ذهب لزيارة أسرة أخيه المسجون والموضوع تحت المراقبة وتركوا ابنته "نورا" وحيدة

6– صورة المسبّل الواعي بالثورة لجني الاستقلال:

لم يعتد الشعب الجزائري على حياة الاستعمار، ولم يقدر على التعايش معه، وليعيش بحرية وكرامة ليس لم يكن له خيار سوى طرده، وبما أنّ إمكاناته كانت جدّ بسيطة، كان لزاما على الثوري أن يكون واعيا بالثورة ملتفا حولها وعاشقا لكلّ ذرة من تراب وطنه. وقد توفرت هذه الصفات في المواطن الجزائري الذي كرّس نفسه للوطن وصبر على الموت في سبيل الحرية وهو ما صوره محمد ديب بكل أمانة عبر شخصيات الرواية.

لم يقدّر "مرحوم" قيمة العمل الثوري حتى التحق ابنه بالثوار، وأصبح يتواصل معهم ويخدمهم بطلب منهم " كانت المشكلة في ذهنه تقوية المقاومة ونشرها"[15] ندم "مرحوم" على الأيام التي مرّت قبل أن يذهب ابنه إلى الجبل وتطلب منه المساعدة فهو **"يشعر أنّ الحياة قد ردّت إليه...أتراه كان نائما خلال ذلك الوقت الماضي أم كان يدفع الأيام دفعا بطيئا...وعلا وجهه تعبير طريف جدّا، إنّه يبسم لأفكاره، وتزداد معرفته لنفسه عمقا يوما بعد يوم"**[16]

كان حال "جمال" أيضا جدّ صعب، فلم يهنأ منذ أن بدأت الثورة، حيث كان موظفا في إدارة الدولة فاستقال من منصبه لعزته وغيرته على أبناء جلدته، وكذا وعيه الكبير بضرورة الثورة.

قصد جمال حانوت الحاج للبحث عن عمل جديد، فاقترح عليه أن يكون بائع قماش عند أحد كبار التجار فقبل دون تردد. وتعود أسباب ترك "جمال" لعمله رفضه للمعاملة السيّئة التي كان يعانيها الجزائريون أمام عينيه يقول :**" لا أستطيع معاملة مواطني كما يعاملونهم، كلاّ، كلاّ ...لست بقادر على أن أعامل مواطني معاملة الكلاب كي لا أقيل، أن يعاملوا أمامي بهذا النحو، كلاّ لقد حاولت أن أتحمّل ،لكنني عجزت وأنا أعتقد أنّني لم أخلق لتلك الأشياء"** [17]. يفضح "جمال" التزوير الفرنسي لوثائق الجزائريين وإخفائهم للحقائق **" كم اخفت هذه النصوص الإدارية الكريهة تنهدات الأبرياء ودموعهم، وأجساد الأطفال الجياع !وكم قتلت هذه النصوص أناسا وهم غافلون ! كلاّ لم تعد لي قدرة على تحمل هذا"**[18]. وهذه صورة طيّبة عن موقف الجزائري من الظلم ووفائه لقضيته.

التحق "حميد ابن بابا علال" بالثورة مخالفا بذلك السلطة الأبوية. ممّا أغضب والده وتظاهر بنسيانه، رغم أنّه لم يسمع عنه خبرا منذ ستة أشهر، حتى جاءه الحدّاد "سيلكة" مطمئنا له." **لا تبتئس، ليس من الخسارة في شيء أن يوجد شاب كابنك هناك.– يجيبه – هذا**

صحيح ولكن ممّا لا شك فيه أنّ كلّ ذلك سينتهي إلى نهاية سيّئة'' [19]. فأجابه "سيلكة" بإجابة تحمل وعيا كبيرا بالثورة والاستقلال**'' إنّ حميدا مع أبناء جلده. وليس هناك من قوة تستطيع أن تثنيهم عن عزمهم–فاحتد بابا علال وصرخ: وماذا لو مات؟**

...في هذه الحالة، لن يكون قد عاش سدى'' [20]

وتحمل الإجابة وعيا من الشعب بقضيته رغم بساطته وأُميته، فلا قيمة للحياة عندهم إلا بتحرر الوطن. ولا معنى لعيش وسط الأغلال.

يضيف الحدّاد بوعي كبير، كلمات تنم عن حكمة وتجربة في الحياة:**'' إنّ حياتنا الماضية تبدو لنا الآن تافهة ماذا سيحدث بعد مئة عام؟ هل يكون هناك من يذكر أنّنا كنّا على قيد الحياة...وقال بابا علال في نفسه..رجل كهذا لديه مثل هذه الأفكار''** [21] لم يكن "بابا علال" ضد فكرة الجهاد في سبيل استقلال البلد وإنّما خوفه الكبير على ولده جعله يفكر بمحدودية. ولكن إن غفل بعض الآباء عن الواجب فهناك من هو محب للوطن والحرية مستميتا من أجلها.

7–صورة المسبّل /التنظيم وإستراتيجية العمل السري:

كانت الثورة التحريرية في سنواتها الأولى مولودا ضعيفا يحتاج إلى الرعاية والاهتمام، وحتى يحافظ الجزائري على ثورته احتضنها بقوة وسرية، وأحاطها بتنظيم وتخطيط استراتيجيان.

وقد نقل لنا محمد ديب بسالة المسبّل الجزائري وحنكته بلغة سردية رصينة دالة، تخللتها مقاطع وصفية جعلتنا نرى المشهد عبر اللغة ونتفاعل مع الحدث من خلال الكلمات.

عمل "مرحوم" بعد أن التحق ابنه بالثوار مسبّلا وذلك لتنظيم **'' تموين الوطنيين المسلحين بناء على طلبهم وأن يهيئ لهم المخابئ، وكانوا قد سيطروا على عدد من المراكز في جبال المنطقة وعمل مرحوم على مؤازرة الفلاحين الآخرين''** [22]. إضافة إلى هذا فهو **''يسهر على رعاية أسر المتحاربين التي لا معين لها أو التي حلّ بها الاضطهاد كما أوكل إليه توزيع الإعانات وتلك مهمة دقيقة''** [23] كما لجأ المواطنون الجزائريون إلى عدالته راغبين عن العدالة الفرنسية **''بعد أن أصبح أحد القضاة السريين الذين يحلون مشاكل القطر وأصبح الأهلون الآن يهملون يوما بعد يوم المحكمة الاستعمارية ليلتجئوا إلى عدالة بني قومهم''** [24]. وهذا ينم عن عدم ثقة المواطن الجزائري البسيط في العدو وعدالته.

كان المسبلون حريصين على نقل المؤونة والمعلومات إلى المجاهدين، ومن ذلك الغارات الفجائية على المداشر. يقول**''كانت التعليمات تقضي بأن يذهب سعيد –ابن مرحوم الصغير– كلّ مرة يلحظ فيها أمرا غير عادي، ليخبر ''عليا'' الذي كان منزله قائما بقرب القمم، يعلو على بقية المنازل وكان ''عليّ'' يحذّر بدوره المراقبين الموزعين في الجبال''** [25] حرص المسبلون في جانب التنظيم على ضرورة السر والكتمان في تأدية المهام ، فقد كان الأخ يخفي عن أخيه أخبار الثورة ومخطط العمل السري، وكان "مختار راعي" لا يتكلم عن الثورة علنا. يقول صهره علاّل: **''أنت تعمل في دائرة حكومية تعرف أشياء لا تريد آن تفصح عنها، لا تنكر ذل ! فلدي من الخبرة ما يكفي لفهم موقفك..'' ثم يضيف'' آه، آه كنت على صواب حين قلت أنّك تعرف كثيرا من الأشياء التي لا تريد أن تفصح عنها، ولاحظ أن هذه الحوادث لا تضايقني كثيرا، وإذا ما تعرضت لذكرها فذلك لكي أتحدث بشيء ما...ولدي قدر كاف من البن المختزن لتسيير معملي فترة من الزمن فيما لو..''**[26]وعلال طالب معروف بروحه الطيبة وكثرة المزاح.

وفي موضع آخر من السرد ينقل لنا محمد ديب مشهد ذهاب "مرحوم" إلى دكان "أحمد العطار" بغرض التزوّد بالمعلومات فيجد عطارا جديدا يتعامل معه بكثير من الحذر. بعد أن اطمأن إليه فقط أخبره أن العطّار يكون صهره، وقد زجّ به في السجن.

يقتضي العمل الثوري الكثير من الحذر والحرص حتى بين أفراد الأسرة الواحدة. وذلك حتى تنجح الثورة وتحقق أهدافها. لأن هناك نموذجا آخر مثله الخونة والقومية؛ الذين حاولوا تعطيل مسار الثورة لأسباب واهية، أولها الطمع والجري وراء القليل من المال، أو بسبب الخوف وهذا ما سنوضحه في العنصر التالي.

8- صورةالمسبل /نموذج الخائن وقسوة العقاب:

لم يغفل"محمد ديب" في رواية "صيف إفريقي"، أن يقدم لنا نموذجا سيّئا عن المواطن الجزائري الخائن لوطنه ولقضيته، حيث داهمت ريف "مرحوم" عمليات تفتيش واسعة تعرض فيها أناس أبرياء إلى القتل.

وينقل لنا "ديب" المشهد عندما رأى "عمران" وهو صديق "مرحوم"قوافل العدو استغرب وقال :**" لقد ظلّت هذه المنطقة حتى اليوم هادئة، لم تحدث فيها أشياء كثيرة باستثناء قطع بعض جذوع الكروم وحرق بعض حزم القمح في ممتلكات المستعمر وباستثناء بعض الهجمات على المزارع واشتباكات دون فائدة . وكان الثوار قد أقاموا شيئا فشيئا من غير حرب جهازا للمراقبة مكان جهاز السلطة الفرنسية"**[27] سرعان ما بدأت قوات الجيش الفرنسي بعمليات العنف والتخريب وإخراج الرجال والنساء والأطفال من البيوت. في هذه الأثناء طلب "مرحوم" من "مهند" أن يهرب بسرعة وحذر ليخبر أصدقاءنا إذا حدث شيء ما. تمادى العدو في عملية إخلاء البيوت، وإطلاق النار، وقتل العباد والحيوان، ونهب المؤونة على بساطتها وإتلافها. وما إن فصل الرجال عن أسرهم حتى ابعدوا وحدهم نحو حقل منعزل، وهو مشهد مأساوي جعل مرحوم يتأكد **" أن في الأمر وشاية"**[28]. قالت بذرة لمرحوم:

" :إنهم يطلقون النار...

اختبئ اختبئ أرجوك !

وما كادت تنهي عبارتها حتى داهم الجنود الفناء ورأوهم كلّهم مجتمعين، وأحاطوا بهم ودفعوهم إلى خارج الدار، واقتيد الزوج توا إلى الحقل حيث جمع الرجال تحت حراسة مشددة وساقوا بدرا وأولادها إلى مكان آخر" [29] لم يكتف المستعمر بإبعاد الرجال عن أهلهم وحقولهم وثورتهم، وإنّما أخلوا كلّ البيوت من كلّ مؤونة فيها وتركوهم بلا عائل!

أدرك "با سهلي"أبو شهيدَي الأسبوع الماضي أنّ هذه المداهمة ليست بالبريئة، وإنما وراءها وشاية من خونة وقومية، وما إن تمكن من تحديد هوية الخائن حتى أخد ابنه "عابد" بعد تناول وجبة العشاء البسيطة بساطة الخراب الذي تركه الاستعمار في مطابخ الفقراء. وذهب لاعتقال" العياشي" وهو النموذج الخائن في الرواية. الذي باع نفسه ووطنه للعدو.

لم يرأف "با سهلي" لتوسلات هذا الخائن الذي أزهق بقلة مروءته حياة الأبرياء، فقتله بفأس لأن الخيانة جريمة كبيرة، ولابد أن يكون عقابها قاس لأنها تعلقت بالهوية والوطن.

اختتمت الرواية بمشهد لزكية ليلا تنتظر القمر باعتبار أن "الظلام عنصر يدسه المبدعون في أعمالهم الإبداعية على اختلافها للتعمية على القارئ، وتهيئة الجو الملائم لسلوك الشخصيات"[30]تقول:" **إنّ النجوم تنسحب وتبتعد، وسيظهر القمر، لست أدري لماذا ينتابني...إنّ شيئا جميلا، ومبدأ طيّبا مثيرا ينعش الليل"**[31]أراد "محمد ديب" من خلال شخصية "زكية" أن يختم الرواية برمزية مكثفة فزكية هي المرأة المثقفة الوحيدة على طول المسار السردي، هاهي تنظر إلى النجوم متأملة مترقبة ظهور القمر وكأنها تقصد بالليل الاستعمار، والقمر هو بصيص الأمل بالاستقلال ، ثم تقول : **"ظلال، ظلال، ظلال،...لست أرى إلاّ ظلالا، وليس ثمة من يسمعني"** [32]، تحوي العبارة الأخيرة دلالة السأم والملل من زمن الاستعمار الذي طال، وأنهك العباد لكن نور الحرية سيبزغ وسيظهر القمر. فزكية في هذه الرواية مثلت الجزائر مع كلّ ما شهدته من ضغوطات إلا أنها بقيت صامدة صابرة ومتماسكة.

عمد "محمد ديب" في نصه الإبداعي إلى تصوير المعاناة التي يعيشها البطل أو المواطن الجزائري بصفة عامة من حالات القمع، والتشرد، والجوع، والظلم والاستغلال، والحقد العنصري وغيرها من الممارسات التي عُرف بها النظام الاستعماري. والغرض من هذا التصوير هو خلق المبررات الكافية لتقبل البديل، وما البديل إلاّ هاجس الالتحاق بالجبل، ففكرة الانضمام إلى المجاهدين هي المخرج الوحيد الذي ينتظر كل مواطن غيور على وطنه. ثم تحدث القطيعة بين حياته الأولى العادية، وبين حياته الثانية في ظل الجهاد بواسطة عمل يقوم به كعربون يعلن به عن ولائه لرجال المقاومة، وعن اختياره طريق اللارجوع.

وقد يتمثل عمله في علاقة سرية سابقة مع المجاهدين، أو في وضع قنبلة يتسبب انفجارها في قتل مجموعة من الفرنسيين، أو يباشر بنفسه

قتل أحد الخونة المتعاونين مع الاستعمار.

فالبطل المجاهد يتمتع بصفات مثالية: الشرف، النبل، الشجاعة، الروح الوطنية، التفاني في الإخلاص، والصدق، والذكاء، والانتصار.

أما نموذج الخائن/ الحَرْكي والفرنسي المحتل، فيتميز كل منهما بصفات مناقضة له: "كالخداع، والخسة، والجبن، والتعدي ، والاغتصاب، والظلم، واستغلال الآخرين، وتعذيبهم بلا شفقة، الهزيمة."[33]

استطاع محمد ديب في هذه الرواية أن يؤرخ لفترة حسّاسة من تاريخ الجزائر، محتفيا بأبطال الثورة وفدائييها ومسبليها، الذين كوّنوا كتلة قوية، حققت النصر فيما بعد " في إبداع روائي حقيقي تكامل بين الفن والوعي، بين الذات والموضوع الخارجي، بين بنية شكلية فنية، وبنية موضوعية اجتماعية، أو لنقل بتعبير آخر هناك ارتباط حميمي داخل نسيج العمل الروائي بين اللحظة التاريخية بتداعياتها السياسية والاجتماعية واللحظة الابداعية الفنية"[34].

الخاتمة:

وخلاصة القول هي أنّ "محمد ديب" كان على "قناعة راسخة بدور الأدب في تشريح المجتمع وطرح قضاياه المتنوعة وفسح المجال أمام مختلف وسائل الإدراك الإنساني لتحليل الظواهر الدخيلة وتعميق النظر في الشوائب وطفيليات السلوك البشري، فوظيفة الأدب والرواية وظيفة تحليل وتركيب وتعبير. وظيفة وعي وتشريح للوعي ونشر للوعي. وظيفة تعرية وتجسيم. وظيفة تسجيل وشهادة" [35]،ونجح في نقل صورة مشرفة وناصعة عن المسبل الجزائري فترة الثورة التحريرية الكبرى، ناقلا معه حقائق مرة ومشرحا لكثير القضايا التاريخية بأسلوب واقعي وبسيط وقوي بساطة هذه الثورة وقوتها.

الهوامش والاحالات:

[1]- الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، أحمد لمنور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.ط1، 2007،ص162

***التعريف بالكاتب**: ولد محمد ديب في 21 جويلية 1920 في مدينة تلمسان، في أسرة كانت غنية لكنها فقدت كل شيء على مر الزمن، توفي والده عام 1931 وتركه صغيرا لم يتجاوز الحادية عشر سنة. فكانت حياته صعبة قاسية. تعلم في مدارس جزائرية ومغربية، اشتغل بالمحاسبة والتدريس وصنلعة السجاد وعمل مراسلا صحفيا، اتصل بالعديد من الكتاب الفرنسيين وتوفي في ماي 2003 بفرنسا مخلفا وراءه أعمال إبداعية متميزة أهمها ثلاثية الجزائر :"الدار الكبيرة، الحريق، النول" وثلاثية الشمال "سطوح أورسول ، غفوة حواء وثلوج من رخام" انظر:

-Jean Dejeux : Med Dib écrivain Algerien , ed Naaman, canada, 1977
-Charl Bonn : lecture présente de Mohamed Dib, E.N.A.L, 1988

-من ذا الذي يذكر نفي محمد ديب، جيلالي خلاص، مجلة الرواية، ع1، 1990

[2]-مع محمد ديب: محمد قنانش، مجلة الرواية محمد ديب خمسون سنة من الإبداع، ع1، 1990،الجزائر.ص35

[3]– هوية العلامات، في العتبات وبناء التأويل،شعيب حليفي،دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء.ط1، 2005، ص11-12

[4]– السرد والحكاية قراءات في الرواية المغربية، عبد المجيد بن البحري وآخرون، مختبر السرديات، جامعة الحسن الثاني المحمدية، الدار البيضاء.2010، ص86-87

[5]– التخيلي والسياسي في تمثلات الحركة الوطنية، نور الدين الزاهي، مجلة بصمات، ع4، جامعة الحسن الثاني، المحمدية، الدار البيضاء ، 1990، ص47-48)

[6]–صيف إفريقي، محمد ديب، تر جورج سالم وعبد المسيح جبار، مر بدر الذين قاسم، مكتبة أطلس، دمشق، دت،ص 6

[7]– المصدر نفسه: ص6

[8]–المصدر نفسه: 139

[9]–الواقع/ الحكاية أو البناء على البناء: الأمين مبروك، ص138)

[10]– صيف إفريقي: محمد ديب، ص19

[11]– المصدر نفسه: ص17-18

[12]– المصدر نفسه: ص21

[13]– المصدر نفسه: ص21

[14]– المصدر نفسه: ص68

[15]– المصدر نفسه: ص35

[16]– المصدر نفسه: ص35

[17]– المصدر نفسه: ص83

[18]– المصدر نفسه: ص83

[19]– المصدر نفسه: ص30

[20]– المصدر نفسه: ص31

[21]– المصدر نفسه: ص33

[22]– المصدر نفسه: ص34

[23]– المصدر نفسه: ص35

[24]– المصدر نفسه: ص34

[25]– المصدر نفسه: ص176

[26]– المصدر نفسه: ص12-13

[27]– المصدر نفسه: ص174

[28]– المصدر نفسه: ص77

[29]– المصدر نفسه: ص177

[30]– القصة الجزائرية المعاصرة، عبد المالك مرتاض، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.ص112)

[31]–صيف إفريقي: محمد ديب، ص203

– [32]– المصدر نفسه:204

[33]– الرواية والتحولات في الجزائر، مخلوف عامر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.2000، ص20-21)

[34]– الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع، دراسة فنية تحليلية، عبد الفتاح كمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1994، ص9

[35]– الواقع/ الحكاية أو البناء على البناء في رواية درب السلطان، الأمين مبروك، مرجع سابق، ص139

قائمة المصادر والمراجع:

أ–المصادر

1– محمد ديب: صيف إفريقي، تر جورج سالم وعبد المسيح جبار، مر بدر الذين قاسم، مكتبة أطلس، دمشق، دت

ب–المراجع:

–أحمد لمنور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.ط1، 2007،

– شعيب حليفي، هوية العلامات، في العتبات وبناء التأويل، ط1،دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 2005.

- شعيب حليفي وآخرون،السرد والحكاية قراءات في الرواية المغربية، مختبر السرديات، جامعة الحسن الثاني المحمدية، الدار البيضاء2010

–عبد الفتاح كمال: الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع، دراسة فنية تحليلية، الهيئة المصرية العامة للكتاب1994

مرتاض عبد المالك: القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.1990

مخلوف عامر: الرواية والتحولات في الجزائر، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.دت

ج–المراجع الأجنبية:

-Jean Dejeux : Med Dib écrivain Algerien , ed Naaman, canada, 1977
-Charl Bonn : lecture présente de Mohamed Dib, E.N.A.L, 1988

د–المجلات والدوريات:

– بصمات ع4، جامعة الحسن الثاني، المحمدية، الدار البيضاء، 1990

مجلة الرواية محمد ديب خمسون سنة من الإبداع، ع1، 1990،الجزائر.